obeikandl.com

obeikandl.com

العبودية على مر العصور

كانت العبودية فى العصور القديمة شكل اجتماعى مقبول، يعود بالفائدة على المجتمع واقتصاد البلاد فى جميع الحضارات القديمة، فى الشرق الأوسط والهند والصين وروما وبلاد الأغريق.. فكان العبيد يعملون فى المنازل والزراعة والتعدين وبناء المعابد وتمهيد الطرق وكمحاربين ، وكانت الجوارى تعمل فى المنازل أو فى الحانات.. وقد عرفت أيضاً الحضارات الأمريكية القديمة نظام العبودية والاستبداد الطاغى، فقد تم استخدام العبيد فى حضارة الأزتيك (Aztec) فى شمال المكسيك، والأنكا (Inca) فى الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية (بيرو وشيلى حالياً) ، والمايا (Maya) فى جنوب المكسيك للعمل فى الزراعة ومن أجل راحة ورفاهية السيد المالك.. كان العبد مثل الحر يقدم كقربان بشرى فى حضارات قائمة على عبادة الشمس والقمر والجبال.

العبودية فى العصور القديمة :

بدأت المدينة مع بداية معرفة الزراعة المخططة، فتقوم عملية تنظيم العمل على استخدام الغير، هذا الاستخدام الذى بنى غالباً على الإرغام والاستعباد فحدث التفاوت بين القوى الذى يستطيع أن يحمى ويصون قطعة أرض وبين الضعيف الذى ليس لديه القوة لأن يحمى أرضاً مشاعاً فى كوكب لم يكن معروف كنيته فى ذلك الوقت وهو كوكب الأرض.. لقد تنبه العقل البشرى للإنسان القوى بأنه بدلا من قتل غريمه ففى الإمكان استعماله ليقوم بعمل الماشية، وبدلاً من شيه وأكله، فمن الممكن استخدام الأسير فى الخدمة داخل المنزل أو خارجه، ومن ذلك الحين أصبح الرق جزءاً من النظام الإنسانى، هذا النظام الذى وجد داخلنا بالوراثة.

ساعد الرق فى قيام الإنسان بالصناعة وزيادة إنتاجه..لقد نظر أسلافنا حتى الفلاسفة منهم مثل الفيلسوف الأغريقى أرسطو إلى الرق كنظام فطرى لا غنى عنه، وأصبح الإنسان الضعيف العاجز عبداً لمشيئة القوى القادر فزادت قوة القوى وتهاوت

قدرة الضعيف واتحد الأقوياء ليزدادوا قوة وانفرط عقد الضعفاء ليزدادوا ضعفا واتسع البون بين طبقتى الأقوياء والضعفاء، ومن حين إلى حين يثور الضعيف ضد القوى فيقوم الصراع الذى قد يؤدى إلى حروب.

لقد كتب وول إيربل ديورانت فى موسوعته (قصة الحضارة) الجزء الخاص بنشأة الحضارة، أن أكل اللحوم البشرية كان شائعاً بين الناس جميعاً فى كل القبائل البدائية كما وجد بين الشعوب المتأخرة تاريخياً مثل سكان ايرلنده وإيبيريا وفى الدنمارك فى القرن الحادى عشر، وكان الأحياء فى الكنغو يباعون ويشترون رجالاً ونساءً وأطفالاً باعتبارهم مواد غذائية، كما كان اللحم البشرى يباع فى الأسواق كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى فى وقتنا الحالى.. وطالما شرب إنسان بعض القبائل الدم البشرى انتقاماً أو دواءً أو كعقيدة دينية.

وجد بعض الناس مع التطور الطبيعى فى السلوك البشرى، وبالعقلية الاقتصادية أنه بدلاً من قتل الضعيف أو المنهزم فى الحرب أو فى عراك، يمكن استعباده واستخدامه للعمل فى المنزل أو فى الحقل.. فبغريزة المجتمع يريد الإنسان إنسان آخر يعيش معه ويؤانسه حتى لو كان عبداً، وبالغريزة السادية يتطلع الإنسان إلى شخص آخر يسيطر عليه ويعذبه، وعلى الطرف النقيض، بغريزة حب البقاء والماسوكية الكامنة داخلنا بنسب متفاوتة يستسلم الضعيف أو العبد أو الماسوكى إلى قدره مضطراً أو متلذذاً.

١ - الدولة السومرية :

فى غرب نهر الفرات، على امتداد النهر جنوباً وشمالاً وجدت الحضارة السومرية القديمة ومن أشهر مدنها مدينة أور (مسقط رأس أبو الأنبياء إبراهيم)، وبابل. منذ حوالى أربع آلاف سنة قبل الميلاد كانت تجارة الرقيق منتشرة بين السومريين وكانت حقوق الملكية مقدسة، لقد دلت الآثار على وجود طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء وما بينهما من الطبقات العاملة .. كان نظام الإقطاع وسيلة لحفظ النظام الاجتماعى فى الامبراطورية السومرية.. أما على الجانب الدينى فقد ابتزت الكهنة أموال الناس كما اتخذت الضرائب كوسيلة لابتزاز الزراع والصيادين إنتاج

كدهم وكدحهم ، لم تكن فكرة التوحيد ونعيم الجنة وعذاب النار قد تبلورت فى عقولهم بعد، كان التقدم بالقرابين إلى الآلهة طمعاً فى النعم الدنيوية، لقد سيطر الكهنة على عقول عامة الناس فأصبحوا عبيداً للكهنة، وخدم كهنة الهيكل أجمل الصبايا وأفتن النساء، وفخر أهل الفتاة بتقديم ابنتهم قرباناً للآلهة وكهنة الآلهة، فتمتع الكاهن، وتفاخر الأب بتقديم ابنته لخدمة واستمتاع الآلهة عن طريق كهنة الآلهة.

٢ - بابل :

نشأ الجنس البابلى من امتزاج السلالة السومرية والسلالة الأكدينية، وتمخضت بابل بشخصية تاريخية مشهورة حكم البلاد لأكثر من أربعين سنة وهو حمورابى هذا الحاكم القوى المستبد الذى حكم بابل فى الفترة (٢١٢٣ - ٢٠٨١ ق.م) وسن خلال حكمه قانونه الذى مزج فيه التطور الحضارى والرقى القانونى من أقصى العقوبات وحشية.. لقد شملت هذه القوانين البالغ عددها ٢٨٥ قانوناً جميع مجالات الحياة، فاحتوت على قوانين خاصة بالأملاك المنقولة، وبالأملاك العقارية، وبالتجارة والصناعة، وبالأسرة والعمل وخلافه من المجالات المتعددة فى ذلك الزمن.

خلصت الوثائق التاريخية أن الحضارة البابلية كانت تعتمد على التجارة والمادة، فكثر البيع والشراء وأعمال السمسرة وتبادل السلع والاتفاقيات التجارية، وكان شعب بابل عامة ثرى، نشيط يعيش فى رفاهية نسبية، ولكن أيضاً عرفت هذه الحضارة نظام الرق والعبودية، وتركوا لنا فى تاريخهم من عهد بنوخذ نصر عقود بيع خاصة بالعبيد الذين استرقوا من خلال الحروب والغارات كأسرى حرب.. كانت الجوارى تخدم فى المنازل تهيىء للسيد طعامه وشرابه وفراشه.. كان العبد وما ملكت يداه حقاً مملوكاً للسيد من حقه أن يبيعه أو يرهنه أو يقتله إذا اعتقد أن موته سيعود عليه بالفائدة من بقائه حياً .. إذا هرب العبد فان القانون لا يبيح لأحد أن يحميه كما كانت للدولة الحق فى إلحاقه فى الخدمة العسكرية أو تسخره للعمل فى الأعمال العامة الخاصة بالدولة مثل شق الترع وحفر القنوات وتمهيد الطرق.. كان يتم وشم العبد فى بابل، ويعاقب الطبيب الذى يزيل الوشم ببتر يده، كان العبد يعتبر من الممتلكات

المنقولة ، فأنه تم تصنيفه ما بين المعادن الثمينة والحيوانات الأليفة، وفى عهد حمورابى رخص ثمن العبيد، فقد بلغ ثمن العبد الذكر القوى عشرين مثقالاً، أى ما يعادل ثمن حمار. . كانت تجرى عمليات بيع وشراء العبيد بموجب عقود مكتوبة شاملة ضمان البائع للمشترى عن أى عيوب مستورة فى العبد، وجعل القانون مدة الضمان حوالى شهراً، كان السيد يقدم للعبد طعاماً يكاد يكفيه ليعيش ليخدم. . كثرت طبقة العبيد فى الدولة البابلية كنتيجة للحضارة المتقدمة على الدول المحيطة، وثراء الشعب البابلى وكثرة الحروب التى كانت تنتهى بانتصارهم . . فكثر عدد الأسرى وانتشرت العبودية.

لم يكن الملك فى بابل هو السيد الأعلى بل كان للكهنة سلطات عليا فلا يتم تعميد الملك إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية فقد كان يحتفل بتعميد الملك بإلباسه زى الكاهن فى احتفال عام حتى يظهر للعامة اتحاد الدين مع الدولة، كما كان يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتية. . كان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة فشيدوا الهياكل وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد.

كانت الكهنة تملك أعداداً كبيرة من العبيد مسخرين للعمل لديهم لخدمة الهيكل أو العزف على الآلات الموسيقية أو عصر الخمور أو قد يؤجرهم للغير مقابل مبلغ من المال يحصل عليه الكاهن السيد. . كثرت الآلهة العديدة التى خلقها خيال الكهنة الواسع، فكثرت العبيد لخدمة الآله وكهنة الآلهة ، فمنها (شمش) للشمس، (ننار) للقمر، (بعل) للأرض، وغيرها من الألهة وكانت أراضى شاسعة تترك وقفاً للكهنة للصرف من عائدها ، فاستقوت الكهنة وضعف الشعب.

٣ - أشور :

ظهرت الحضارة الأشورية منذ حوالى ٣٧٠٠ قبل الميلاد على بعد ٥٠٠ كيلو متر شمال بابل، ونشأت هذه الدولة العسكرية حول أربع مدن ترويها مياه نهر دجلة وروافده وهى أشور وأربلا والكلخ ونينوى. . وكانت سمة الحضارة الأشورية الحرب التى فرضها ملوكها على جيرانهم، وكان أعظم ملوكهم هو (تغلث فلاصر) الأول الذى ساق جيوشه فى جميع الاتجاهات فأخضع الحيثيين والأرمن لحكمه،

واستولى على بابل وهدد مصر ولكن انتهى عهد هذا الملك بعد ذلك بهزيمة جيوشه من بابل.

كان الحكم الأشورى استعمارياً، فقد بسطت الدولة الأشورية يدها على بلاد كثيرة منها بجانب أشور: بابل وأرمينية وميديا وفلسطين وسوريا وفينقية وسومر وعيلام وأقامت فى هذا الجزء من آسيا نظاماً مركزياً يسوده الرخاء.. كانت تغلب على هذه الدولة العسكرية روح العنف والهمجية والسادية .. دعنا نقرأ فى نشأة حضارة الشرق الأدنى للكاتب وول ديورانت الجزء التالى:

«كانت العادة المألوفة أن تدمر المدينة المغلوبة وتحرق عن آخرها، وكان الملوك يكسبون ولاء جنودهم بتقسيم جزء كبير من الغنائم بينهم، وكانوا يضمنون شجاعتهم باتباع العادة المألوفة فى الشرق الأدنى وهى اتخاذ جميع أسرى الحرب عبيداً أو قتلهم، وكثيرا ما كان الأسرى يقتلون عن آخرهم حتى لا يستهلكوا كثيراً من الطعام وحتى لايكونوا خطراً على مؤخرة الجيش أو مصدر متاعب له.. أما الأسرى الأشراف فكانت تجدع أنوفهم وتقطع أيديهم وأرجلهم أو يقذف بهم من فوق أبراج عالية أو تقطع رؤوسهم أو تسلخ جلودهم وهم أحياء أو تشوى أجسامهم فوق نار هادئة».

لقد تفاخر الملك الأشورى (أشور بانيبال) الذى توفى عام ٦٢٦ قبل الميلاد، فى بعض نقوشه أنه سلخ جلد كل من خرج عليه من الزعماء، وأعدم بعضهم بالخازوق وأحرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ولم يبق على واحد منهم حياً ليتخذه أسيراً.

كانت القوة الثانية بعد القوة العسكرية فى أشور هى القوة الدينية التى كان يستمدها الملك من الكهنة ولكن كانت هذه القوة غالية الثمن حيث كان رأس الدولة الرسمى هو الإله أشور الذى استمد من خلاله الكهنة قوتهم وثروتهم عن طريق الضرائب ومغانم الحروب.. كان الملك يجبر شعبه أن يصفوه بالإله الذى كان غالباً الإله (شمش).

كانت الفتوحات العسكرية هى المصدر الرئيسى للحضارة الأشورية ولكنها كانت أيضاً من أسباب انهيار هذه الحضارة. . كانت الجيوش الأشورية قوية لا تقهر فى ميدان القتال، فقد كان القائد أو الجندى الأشورى سيداً بمعنى الكلمة، من جسارة وإقدام وعدم الخوف من الموت، وبمرور الزمن تناقص عدد الأسياد ولم يتبق من الشعب الأشورى إلا الضعيف الحذر، من يملك طبيعة العبد، فضعف وتدهور النسل جيل بعد جيل مما أدى إلى انهيار أساس القوة التى اعتمدت عليها هذه الحضارة وانتهت كما انتهت كثير من الحضارات على مر التاريخ.

٤ - فينقية :

عاش الفينيقيون ، فى شريط ضيق من الأرض محصوراً بين البحر المتوسط وسوريا، تحرروا من حكم مصر عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، عملوا بالتجارة ونقل البضائع بين المدن الساحلية لثلاث قارات (أفريقيا وآسيا وأوروبا) عن طريق الطرق البحرية وأسطول بحرى متقدم بالنسبة لذلك الوقت.

كان الفينيقيون مثل قدامى التجار لم يفرقوا بين التجارة والغدر فانتهجوا اللصوصية والقرصنة، يستولون على السفن ويأسرون ملاحيها ويبيعوهم كالعبيد، أو يغدروا بالأهالى السذج فى البلاد التى كانوا يتاجرون فيها ويخدعوهم بحجة رؤية سفنهم ثم يبيعوهم عبيداً فى بلاد أخرى. . كانت مدن بابلوس ، وصيدا ، وصور من أهم وأغنى مدنهم، مدن مزدهرة بالتجارة، يحكمها طبقة من التجار الأثرياء فانتشرت الدعارة، خاصة الدعارة الدينية لآلهة الخصب والحب الشهوانى (عشتورت) ، وإن كانت الدعارة مهنة فإنها تعتبر نوع من العبودية تمتهن الإنسان بقوة المال أو قوة كهنة الآلهة.

٥ - الدولة العبرانية :

لم يؤثر تاريخ العبودية والتشتت فى مستقبل شعب كما أثر فى العبرانيين. تم استعبادهم فى مصر وتسخيرهم فى أعمال البناء حتى فر بهم موسى عبر سيناء، وبعد استقرارهم فى أرض الميعاد ظناً أن الزمان طاب لهم، زحف بنوخذ نصر البابلى

إلى أورشليم وهزمهم وعاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير يهودى، وعاود بنوخذ نصر الكرة وهدم هيكل سليمان رمزهم العقيدى، وعاش اليهود فى بابل كعبيد حتى تم غزوها من قورش الفارسى فأعطى لليهود الحرية أن يعودوا إلى أورشليم. . كما تذمر بعض اليهود وعاتب موسى لإخراجهم من مصر وحرمانهم من خيراتها وعدسها وثومها، أيضاً لم يتحمس بعض شباب اليهود للعودة إلى أورشليم تاركين ورائهم فى بابل أرضاً خصبة وتجارة رائجة.

لقد عاش اليهود تاريخاً طويلاً مزج فيهم كبرياء تاريخى وسيادة إلهية باعتقادهم أنهم شعب الله المختار مع عقد نفسية مليئة بمرارة العبودية والأسر فى مصر وبابل والحصار فى قلعة الماسادا والتشتت فى جميع أنحاء كوكب الأرض. . لقد كان هذا المزيج هو الحافز والدافع لإثبات ذاتهم والبحث عن أمنهم، هذا المزيج الذى شكل شخصية اليهودى ليصبح السيد العبد، تجده متفوقاً فى العلم والمال والفلسفة والسياسة والإعلام : إينشتين ، فرويد، كارل ماركس، وغيرهم، من الفلاسفة والعلماء، الثورة البلشفية فى روسيا كان كثيراً من الأعضاء البارزين فيها يهودا، من يتحكم فى السياسة والإعلام والمال فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا هم يهودا. . كان ومازال اليهود مثالاً للسيد العبد منذ نشأتهم وكما جاء فى كتبهم، يتصرف ملك أو نبى تصرف العبيد ويتنازل عن زوجته أو بناته، ثم يجىء آخر ليرسل قائد قواته العسكرية إلى مواجهة العدو ليستولى على زوجته، أو يجبر ملك آخر حكيم ملكه من بلد بعيد بالحضور إليه فى مملكته. . قاسى اليهود العبودية والأسر والحصار والشتات وسكنى حارات ضيقة زمناً طويلاً، فأيقن هذا الشعب القليل الأفراد نسبياً أن سياسة أرستقراطية السيد لن تجدى، فاعتمد على العقل والدهاء وبرع فيهما اليهودى وعاش بهما متسيد على الآخرين ولكن داخله لا ينسى أنه السيد العبد. . لقد تنازل اليهودى فى المنفى على كثير من عاداته ومعتقداته التى جاءت فى كتبه السماوية وفى كتب حكمائه حتى لا يثير عدواة الشعوب التى عاش وسطهم، أى رضى اليهودى أن يخالف معتقداته وأن يتنازل عن سلوك السيد طمعاً فى حب البقاء وأملاً فى خلاص مستقبلى فى أرض الميعاد.

٦ - الفرس :

كانت الدولة الفارسية أيام الملك دارا فى أوج مجدها فاتسعت حدود دولتها التى شملت مصر والشام وفينقية وليديا وميديا وفارس وإمارات أخرى بلغت العشرين. . يملك الأرض الإقطاعيون الذين كانوا يزرعونها من خلال مستأجرين نظير جزء من المحصول أو عن طريق العبيد الأجانب.

كان ملوك الفرس المتأخرين يعهدون شئون الحكم إلى الأشراف أو إلى خصيان قصورهم الذين كانوا يحرسون النساء ويحيكون المؤامرات داخل القصور الملكية، وبلغ عدد الخصيان الذين كان يتم إرسالهم سنوياً من بابل حوالى خمسمائة. . أما أشراف الفرس فكانوا يجبون الضرائب ويقودون الجيوش ويعملون فى القضاء، أى لهم اليد العليا فى إدارة شئون البلاد.

بالرغم مما جاء به زرادشت (٦٢٨-٥٥١ قبل الميلاد) من عقيدة قريبة من التوحيد وأن العالم هو ميدان للصراع بين الخير المتمثل فى السيد الحكيم (أهوارامزدا) خالق السماوات والأرض، والشر المتمثل فى الروح الشريرة (أهرامان) المنغمسة فى النوايا الشريرة والكذب، وبالرغم من اعتناق الفارسيين هذه الديانة التى كانت تحث على مكارم الأخلاق فقد وجدت الوحشية خاصة عند ملوك العهد الأخير للامبراطورية، فقضوا على خصومهم بدون شفقة أو رحمة فكانوا يصلبونهم ويباع أتباعهم كعبيد، ويخصى غلمانهم وتسبى نسائهم.

مثل أكثر الأنظمة فى هذا الكون التى تأخذ شكل دورات فقد انهارت الامبراطورية الفارسية التى وصلت إلى القمة فى عهدى دارا وقورش، لقد ساد الفساد وعمت الرذيلة فى هذه الأمبراطورية التى لم تدم لأكثر من مائتى سنة، فاجتاحت جيوش الأسكندر الأكبر بلادهم وهزم جيشهم الذى لم يكن قواده يرغبون فى القتال، فكانوا يحضرون سراريهم للتسلى بهم أثناء الحروب، فانتشر الفساد فى الجيش وثبطت العزيمة والهمة بين الجنود وانتهى بهم الأمر إلى الاندحار والانحدار.

٧ - مصر القديمة :

وصف د. جمال حمدان فى موسوعته (شخصية مصر) النظام الاجتماعى فى مصر القديمة: « هناك ثلاثة اتجاهات أساسية فى توصيف وتكييف أو تشخيص هيكل النظام الاجتماعى فى مصر القديمة هى على ترتيب ظهورها الزمنى: الاتجاه الإقطاعى، العبودى، الأسيوى. فالإقطاعى أقدمها وأوسعها انتشاراً» . . لقد كان النظام فى مصر إقطاعى بشكل عام نتيجة لوجود طبقة من كبار ملاك الأراضى الزراعية التى يعمل بها الفلاحون كأجراء. . أما وجود العبودية فى مصر فكانت عن طريق أسرى الحروب الذين كثروا خلال الانتصارات الحربية أو عن طريق بيع الفقراء أبنائهم أثناء المجاعات والأزمات. . لم يدخل العبد فى عملية الإنتاج أو الزراعة ولكن اقتصر عمله فى مصر القديمة على الخدمة المنزلية أو العمل فى المناجم وخاصة مناجم الذهب المنتشرة على طول الضفة الشرقية للنيل وفى بلاد النوبة، وكان الذهب يشحن بعد طحنه وغسيله إلى فرعون مصر ابن الآله العظيم آمون.

أما الاتجاه الثالث للنظام الاجتماعى فى مصر فهو ما أسماه د. جمال حمدان بالطغيان الشرقى الذى يرجع إلى طبيعة هذه البلاد من ضرورة الرى عن طريق النهر وفروعه وقيام سلطة عليا مركزية تشرف على تنظيم توزيع المياه على الفلاحين عن طريق جهاز ضخم من الموظفين. الكل يخضع له خضوعاً هرمياً مطلقاً. . وهذا النظام يتيح للدولة أن تملك وتتحكم وبالتالى فإن عامة الشعب لم يكونوا تابعين لأفراد كعبيد، وكذلك لم يكونوا أسياد ولكنهم تابعون لسلطة الدولة ممثلة فى فرعون ثم الأمراء والوزراء والكهنة ثم كبار الموظفين وصغارهم، أى كانت العبودية هى عبودية عامة وليست عبودية فردية كما دعاها فلاسفة الفكر الشيوعى ماركس وأنجلز ووصفها د. جمال حمدان فى كتاب شخصية مصر.

ألغيت الملكية الفردية للأرض فى مصر القديمة وأصبحت كل أراضى مصر ملكاً قانونياً للدولة ممثلة فى فرعون ابن الإله وحامى البلاد ، وقصرت حيازة الأرض على حق الانتفاع دون حق الرقبة، وأصبح الفلاح المصرى مجرد آلة إنتاج بشرية. أما الماء

الذى يعتبر أساس الحياة، منه يشرب الفلاح ومنه يروى أرضه فكان يتحكم فيه فرعون مصر عن طريق جهاز حكومى قوى ومنظم، وكان ثمن المياه بالنسبة للفلاح هو العمل مجاناً لحساب الدولة فترة من الزمن كل عام، يزرع ويحصد ويقيم السدود ويشق الترع ويبنى المعابد والأهرامات أو يعمل كجندى فى جيش فرعون الذى جمع كل السلطات فى يده فأصبح الحكم فردى مطلق لفرعون ابن الإله أى صورة من الحكم الأوتوقراطى.

دعنا نسرد بعض ما كتبه د. جمال حمدان عن العبودية فى مصر القديمة: « لقد جاء الطغيان الفرعونى نتيجة حتمية للدولة المركزية، التى كانت ضرورة حتمية للبيئة الفيضية.. وكما كان لهذه المعادلة مزاياها الواضحة، فلقد كان لها عيوبها الأوضح.. نعم، بها كانت مصر أول وحدة سياسية أو أول دولة موحدة فى التاريخ، لكنها أيضاً صارت بها على الأرجح أول طغيان فى الأرض، أقدم وأعرق حكومة مركزية فى العالم، ولكن أقدم وأعرض استبداد أيضاً.. لقد دفع المصرى منذ البداية ثمن وحدته السياسية المبكرة من حريته السياسية واشترى الأمن الاجتماعى بالحرية الاجتماعية.. وفى النتيجة أصبحت العلاقة عكسية بين المواطن والدولة، فتضاءل حجم الشعب بقدر ما تضخم وزن الحكم، وكلما كبرت الحكومة صغر الشعب».

انعكست هذه النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على شخصية المصرى على مر العصور فهى كما وصفه د. جمال حمدان فى كتابه شخصية مصر: «شخصية معتدلة، لا تميل إلى القسوة، ضعيفة هشة، باهتة هلامية، لا شكل لها ولا قوام، لا لون ولا طعم، غير حاسمة أو قاطعة أو إيجابية، بل سلبية تواكلية، سهلة التشكيل والانقياد». والسؤال هل سيسير المستقبل فى نفس الاتجاه العام للتاريخ المنقضى أم سيلعب القدر لعبته.. هل بعد التطور التكنولوچى فى نظم الاتصالات والمعلومات والانفتاح العولمى الجديد ستتأثر الحضارات ببعضها فتتغير شخصية المصرى، أم سيتضائل تأثير الحضارات الغربية بالنسبة لرسوخ الثقافة الشرق أوسطية فى عقلية المصرى لأكثر من خمسة آلاف سنة.

٨ - اليونان القديمة (هيلينيا) :

يقصد باليونان القديمة العصور السابقة على ميلاد المسيح، حيث كان الاستغلال البشرى فى اليونان أقل قسوة من بعض البلاد الأخرى المجاورة، فلم يوجد فى ذلك الوقت التميز الطائفى الشديد بين العامل وصاحب العمل، أما الطبقة الارستقراطية فكانت لا تميل إلى العمل اليدوى أو التجارة، فكان فى اعتقاد اليونانى الأرستقراطى القديم إن الإنسان الحر هو الذى يتحرر من الواجبات الاقتصادية وأن يستخدم العبيد ليعتنوا بشئونه المادية ليتفرغ هو إلى الآداب والفلسفة أو إلى الحرب والسياسة.

كان الغرباء الأحرار هم الطبقة الوسطى فى أثينا، يعملون فى التجارة والمقاولات والصناعة وكأصحاب حوانيت وأرباب حرف وفنانين ولكن حرم عليهم امتلاك الأراضى أو الانضمام إلى الهيئات الدينية.. كان يشارك الغرباء فى الحرمان من بعض الحقوق السياسية العتقاء من العبيد.. كان السيد يكافئ أشد عبيده إخلاصاً له بعتقه، كذلك كان العبد يعتق إذا افتداه أهله أو أصدقائه، أو افتدته الدولة نظير خدماته فى الحرب.. تكونت طبقة العبيد من الأسر فى الحروب أو من غارات الاسترقاق أو من الأطفال المشردين أو المجرمين، وكان الهيلينى يرى أن الأجنبى عبد بطبعه لأنه يبادر بالخضوع إلى الملوك، كان الرق تجارة رائجة فى المدن الهيلينية وأثرى من ورائها النخاسون، وكان أهل أثينا يستثمرون أموالهم فى شراء العبيد ثم تأجيرهم للعمل فى البيوت أو المناجم أو المصانع فكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو اثنين على الأقل، أما الجوارى فقد كثرت فى الريف الهيلينى وتخدم فى البيوت وتسرى على رب الأسرة.

ندد الفيلسوف اليونانى أفلاطون باستعباد اليونانى لقرينه، ولكنه أقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولاً غير ممتازة، كما كانت نظرة أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية وكان يعتقد أن العبودية ستستمر حتى تؤدى الآلات التى تدور بنفسها جميع الأعمال الحقيرة.

إن كان اليونانى القديم رحيماً بعبيدة إلا أنه استبعد فكرة إلغاء العبودية، فلسفة يونانية قديمة تستهلك وقت فراغه ولكن تخدم مصالحه فى نفس الوقت.

٩ - الامبراطورية الرومانية :

كانت العبودية فى الامبراطورية الرومانية تختلف عنها فى بلاد الأغريق التى كانت تعامل العبيد بإنسانية ورحمة، فكان السيد المالك بقوة القانون له الحق فى البقاء على حياة العبد أو قتله. . اعتمد شعب روما القديمة على العبيد فى تنمية اقتصادهم لوجود عجز فى الأيدى العاملة حيث كان المواطنون الأحرار يشتركون فى الغزوات والفتوحات العديدة التى قامت بها الامبراطورية الرومانية، فكان العبد يحل محل المالك فى العمل وفى الحقل أو فى التجارة كما كان يقوم بخدمة أهل البيت.

توفر العبيد بأعداد كبيرة فى الامبراطورية الرومانية القديمة كنتيجة لأسرى الحروب العديدة التى خاضتها الامبراطورية، كما كانت العبودية أيضاً تتم كوفاء لدين، فكان المدين يبيع نفسه أو أحد من أفراد أسرته لتسديد دينه. كما كانت العبودية أساس التنمية الاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية فقد كانت أيضاً من ضمن أسباب انهيارها. . أن الأسباب الجوهرية لسقوط الامبراطورية الرومانية هى النزاع بين طبقاتها ، وكساد تجارتها، وحكومتها الاستبدادية البيروقراطية، وحروبها المهلكة، فعندما أراد أورليوس فى القرن الثالث الميلادى أن يسد ما حدث من نقص فى جيشه جند العبيد والمجرمين ، فقد قل عدد الرجال الأحرار الذين كانوا عماد الجيش الرومانى القوى، واعتمد الجيش على عبيد تنقصهم الخبرة الحربية وحمية القتال، فانهار الجيش وانهارات الأمبراطورية.

١٠- الهنـــــــد :

تعتبر الحقبة الدرافيدية نسبة إلى قبائل الدرافيديا أقدم حقبة فى تاريخ الهند، فكانت لهذه القبائل حضارة متقدمة تماثل حضارات الشرق الأوسط فى مصر وبابل، لم تكن الهند فى ذلك الوقت دول موحدة بل كانت منقسمة إلى ممالك صغيرة وإمارات، بها أحياء ارستقراطية وأحياء فقيرة، فقد أكدت الأثار الباقية من تلك العصور عدم وجود مساواة اجتماعية لدى الدرافيين.

فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد اجتاحت الهند قبائل أرية قادمة من آسيا الوسطى، اتسم الآريون بالشجاعة فى الحروب والقسوة فى المعاملة وكانوا يتألفون من تسع قبائل أهمها قبيلة (البهارات) . . عاش الهنود الآريون على أسلاب الحروب فى أول الأمر، ثم استقر بهم الحال بعد فترة وأصبحوا حضريين، مقيمين، يشتغلون بالرعى والزراعة بعدما أبادوا عدد كبير من السكان الدرافيديين وجعلوا المتبقى منهم أرقاء أو خدما يعملون فى منازلهم.

هبط الآريون إلى الجزء الجنوبى من الهند عبر الألفية الأولى من التقويم الميلادى، وأخضعوا سكان الهند إلى نظام طبقى يتكون من أربع طبقات مغلقة تسمى (فارنات) . . كان البراهمة وهم كهنة ينتمون إلى الطبقة (الفارنا) العليا، ثم يأتى بعدهم طبقة المحاربون، ثم طبقة السودرا ، وهى الطبقة العاملة من فلاحين وحرفيين وتجار، وأخيراً طبقة العبيد والخدم، وقد أقيمت بين الفارنات أو الطبقات المغلقة حواجز محكمة وكانت الزيجات بين هذه الطبقات محظورة تماماً، كما كانوا يعتبرون الأولاد المولودون من هذه الزيجات مدنسين ويضعون فى فئة المنبوذين (الباريا) . . كانت طبقة البراهمة لها امتيازات كثيرة مثل الإعفاء من الضرائب . . كما كانوا محررين من أعمال السخرة ، وكان لا يمكن إلحاق أى عقوبات جسدية بهم.

لم تكن طبقة السودرا (طبقة العبيد والخدم) تتمتع بأى حقوق، فإذا قتل أحد من الطبقات العليا فرد من طبقة السودرا، دفع غرامة تعادل غرامة قتل كلب. . إن الرق وإن كان منتشراً فى الهند القديمة، إلا أنه كان يتصف بصورة عامة بطبع عائلى، فالآريون المدنيون لم يكونوا يعتبرون بمثابة أرقاء إلا بصورة مؤقتة، وكان يرخص بالزواج بين أحرار وأريين من العبيد، ولكن فى حدود الفارنا الواحدة أى الطبقة المغلقة الواحدة.

١١ - الصين :

ترجع أقدم حقبة فى تاريخ الصين إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وكانت تحمل اسم (شانغ - ين) ، كان الاقتصاد الصينى قديماً يقوم على زراعة الشعير، ثم الذرة

والقمح والأرز بعد ذلك، وكذلك زراعة شجر التوت الذى اعتمدت عليه صناعة الحرير التى اشتهرت بها الصين حتى وقتنا الحالى.

تأسست الدولة المركزية فى الصين فى عهد (تشيوو) فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وكان التنظيم السياسى يقوم على أساس أن الامبراطور يستمد سلطته من السماء، فهو يحكم وفقاً للحق الإلهى الذى يخوله سلطة مطلقة، فكان الامبراطور يعتبر ابن السماء أو وكيل السماء.. عرف الصين نظام الاستبداد فى عصر الامبراطور (شيه هوانغ - تى) ، فتولد استياء الشعب من القهر والاستبداد وسانده أنصار الكونفوشيوسيه المستنيرة والتى كانت تدعو إلى ممارسة الفضائل الإنسانية والاستقامة وولاء الأبناء للآباء للحفاظ على الجانب الإنسانى ، واقتلاع جذور الشر الكامن فى البشر وإحلال الخير محله.

اتسم نهاية القرن الثالث قبل الميلاد فى حكم آل هان ببعض التخفيف للاستبداد، وأعيدت الحرية إلى من كانوا قد باعوا أنفسهم كعبيد، وأعلن مذهب كونفوشيوس دينا للدولة، ولكن تغير الحال فى عهد حكم ووتى (١٤٠-٨٧قبل الميلاد) بتزايد عدد كبار الملاك الذين كانوا يستثمرون عمل العبيد، وكذلك المزارعين الأحرار الفقراء.

لقد تواجدت العبودية فى جميع العصور القديمة للصين، ولكن اختلفت معاملة العبيد من عصر لآخر، حتى اندلعت فى العام الثامن الميلادى فى شمال الصين انتفاضة من الفلاحين، إلا أن انضمام فصائل من الأرستقراطين إلى الانتفاضة قد غير من اتجاهها لحدوث تعارض فى المصالح بين كبار الملاك من جهة، وصغار المزارعين والعبيد من جهة أخرى، وبالرغم من ذلك كسب العبيد بعض الحقوق من هذه الانتفاضة، فقد سمح للأرقاء أن تكون لهم أعمالهم واستثماراتهم الخاصة.

١٢ - انتفاضة سبارتاكوس :

كانت انتفاضة العبيد بقيادة سبارتاكوس، أهم حركة من نوعها، وأكثرها إثارة وشهرة على مر التاريخ.. اندلعت الانتفاضة فى عام ٧٣ ق.م. فى مدرسة

للمصارعين فى كابوا - أيطاليا، واشترك فيها حوالى مائتين من العبيد، وقد تم السيطرة على الانتفاضة ، ولكن تمكن جماعة منهم تبلغ حوالى ثمانين عبداً من الفرار واللجوء إلى منحدرات جبل فيزوف حيث انتخبوا سبارتاكوس قائداً لهم.

ولد سبارتاكوس فى تراسيا، وخدم فى القوات المساعدة الرومانية، وبيع كعبد بسبب فراره من الجندية، ولكنه كان منظماً، لديه مواهب عسكرية.. لم تبد روما فى بداية الأمر أى أهمية لفرار المصارعين ولكن مع تزايد أعداد العبيد المنضمين إلى سبارتاكوس وزيادة قوته العسكرية، عبأ الرومان جيشاً صغيراً قوامه حوالى ثلاثة آلاف من الجنود الذين احتلوا الممر الوحيد من جبل فيزوف، وحاصروا المتمردين، أظهر سبارتاكوس حينئذ عبقريته العسكرية، فضفر لرفاقه سلالم من أشجار الكروم لاستخدامها فى النزول على مؤخرة الجيش الرومانى الذى أصيب بهزيمة ، فزادت شعبية سبارتاكوس وكثر أعداد المنضمين إليه، فبلغ عدد جيشه بضعة آلاف من المقاتلين، وانتشرت الانتفاضة لتشمل كامل إيطاليا الجنوبية.

انفجرت الخلافات بين المتمردين لتعدد البلاد القادمين منها، واختلاف انتماءاتهم الوطنية، فمنى جيش سبارتاكوس بأول هزيمة على يد الرومان، تقدم سبارتاكوس نحو شمال إيطاليا فأحرز انتصاراً هائلاً جديداً على الجيش الرومانى أمام مدينة موتينا، فوصل إلى قمة مجده وشهرته وبلغ جيشه حوالى مائة وعشرون ألف مقاتل.. بلغ طموح سبارتاكوس مداه فاتجه نحو روما فساد الزعر على الرومان، وأدى ذلك إلى منح مجلس الشيوخ الرومانى لماركوس كراسوس، وهو سيد من نبلاء روما ومالك لأعداد كبيرة من العبيد، سلطات استثنائية لوقف سبارتاكوس، حاول سبارتاكوس الإبحار إلى صقلية بالاتجاه جنوباً ولكنه لم يوفق لعدم توافر سفن، كما دمرت العواصف الأطواف التى صنعها رجاله، فلحق كراسوس بسبارتاكوس، وحدثت المجابهة الحاسمة فى عام ٧١ ق.م. والتى انتهت بسقوط سبارتاكوس قتيلاً، وسحق ثورة العبيد الكبرى، وكان انتقام المنتصرين الرومان هو زرع كل الطريق من كابوا حيث بدأ التمرد إلى روما بستة آلاف من العبيد المصلوبين.

العبودية فى العصور الوسطى :

تقاسمت الدولة الإسلامية فى القرنين السابع والثامن الميلادى مع الدولة البيزنطية فى احتلال دول حوض البحر المتوسط بالإضافة إلى شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس التى كانت تحت يد الدولة الإسلامية. لم يتلاش الرق فى القرون الوسطى، ولكن كنتيجة لانتشار الديانتين المسيحية والإسلامية، كان العبيد أحسن حالاً، فقد خففت الأديان من نير العبودية وسوء معاملة الأسياد للعبيد. فقد دعت هاتين الديانتين إلى التسامح وحسن المعاملة الذى شمل الجميع، فخير العباد عند الله أتقاهم.. كانت أوروبا فى ذلك الوقت فى عزله وانزواء تسيطر عليها ارستقراطية خالية من أى حضارة أو ثقافة مميزة.. إلا أنه ابتداءً من القرن الثامن الميلادى، أخذ التجار الفرنج فى التبادل التجارى مع الدول الإسلامية، فكانوا يبيعون فى الأسواق الإسلامية بعض مصنوعاتهم كالأسلحة والرقيق ، فيبيعون عبيداً وقعوا فى الأسر من البلدان الوثنية.. كانت تجارة الرقيق رابحة ولكنها كانت تجرى بتحفظ وكان مصدر العبيد فى أوروبا هو سوق النخاسة فى براغ، وصقلية وقبائل الخزر بتركيا.

كان نظام الاقتصاد الأوربى فى القرنين الأخرين من الألفية الأولى يعتمد على الثروة العقارية والإقطاعيات الزراعية. كان من المرهق لصاحب الأملاك الواسعة استخدام أو تشغيل عدد كبير من الأرقاء والعبيد، لعدم توافرهم فى أسواق النخاسة، ولهذا فقد فضل أصحاب الأملاك استثمار جزء من أملاكهم من خلال عبيدهم أو أحرار المزارعين، فكان الاستثمار يتم وفقاً لشروط معينة، وعقود مكتوبة حتى يضمن المالك السيد الحصول على مبلغ من المال سنوياً، بالإضافة إلى جزء من محصول الأرض، وشيئاً مما تنتجه العائلة المستخدمة من أشغال يدوية مثل قطع الأثاث أو الملابس، وكانت هذه الطريقة تؤمن لسيد الأرض أو مالك العقارات دخل سنوى ثابت، كما كان يضمن الحماية لأملاكه الواسعة والمتعددة.. كانت الأخلاق المسيحية تحظر استعباد المعمد أو المتنصر.. وكانت تعتبر تحرير العبيد عملاً يستحق الأجر والثواب، إلا أن المجتمع الأوروبى كان يقوم على الاسترقاق، شأن المجتمع الرومانى فى عهد الامبراطورية الرومانية المتأخرة.

فى هذه الحقبة، كان يتم جلب العبيد من البلاد الوثنية، وأصبح الإتجار بهم عملية رابحة، وفى مطلع القرن التاسع بلغ عدد العبيد فى ريف أوروبا حوالى عشرة فى المائة من مجموع السكان، يعمل السواد الأكبر منهم فى المزارع والحقول، وقد ساعد هذا الوضع فى التخفيف من الروابط التى كانت تشدهم بالسيد، بالرغم من الحق المطلق للسيد أن ينزل جميع أنواع العقاب أو العذاب على العبد وعائلته ونسله ولكن إذا استقر أحد من العبيد فى منزله الريفى الذى وهبه له السيد، فواجباته تخف نوعاً ما ، إذ ينحصر معظمها فى استثمار الأرض المقطوعة له، وكان بإمكانه توريث مدخراته إلى أولاده من بعده.

يرجع النظام الإقطاعى الزراعى فى أوروبا إلى القرن الخامس الميلادى، وبلغ هذا النظام ذروته وتأثيره على النظم الاجتماعية والسياسية ما بين القرنين الحادى والثانى عشر. . التزم الفرد الضعيف فى هذا النظام بتأدية خدمات للفرد القوى مقابل التمتع بحمايته، لم تكن علاقة سيد بعبد، ولكنها كانت علاقة سيد قوى بتابع ضعيف، نتج عن هذه العلاقة زيادة سلطة وثروة القوى، فى حين اطمئن الضعيف إلى الحماية له ولأسرته بتنازل - فى هذا النظام - المالك الصغير الضعيف عن أرضه، وأصبح مستأجرا يؤدى إيجاراً فى شكل خدمات أو سلع أو منتجات من الأرض التى يستأجرها، وبذلك كان النظام الاقطاعى من حيث أركانه القانونية عبارة عن نظام حل فيه إيجار الأرض محل ملكيتها . . كان الالتزام بين السيد وتابعه متبادلاً بالرغم من انعدام المساواة فى الواجبات والالتزام، كان التابع مديناً للسيد بواجبات الخدمة العسكرية والخدمة فى البلاط، وكذلك دفع مبالغ معينة فى أوقات متفق عليها، أما التزام السيد فكان يتمثل فى مد يد العون والحماية لتابعيه، ومراعاة العرف والمواثيق التى تحدد حقوق التابع وامتيازاته، وكان التابع يستطيع نظرياً أن يهجر الأرض التى يستأجرها وأن يرفض الخضوع للسيد المالك، إن كان التملك فى عهد الإقطاع ينصب عادة على الأرض، إلا أنه قد شمل أيضاً أى شى له قيمة مادية، مثل الحق فى تشغيل طواحين الغلال، أو جباية ضريبة العبور، أو استغلال مياه الرى، أو تولى وظيفة حكومية، سار نظام الإدارة الحكومية فى هذه العهود على نهج نظام إقطاع

الأرض، فأصبحت الوظائف الحكومية تورث كالأرض، واعتبرت الوظيفة ميراثاً أبدياً للفرد وأولاده من بعده.

أما عن الهند والصين وبلاد الشرق الأقصى الأخرى، فقد انتشرت الديانة البوذية فى الهند فى القرن السابع الميلادى تحت رعاية الامبراطور هارشا ، ومنها هاجرت إلى بلدان مختلفة فى شمال وجنوب شرق قارة آسيا ، كما نشطت التجارة بين الدولة الإسلامية الحديثة وبلاد الشرق الأقصى والأدنى وخاصة الهند والصين والجزر الأندونيسية . كان النظام الامبراطورى الإقطاعى هو الذى يحكم الصين واليابان ، ولكن بصفة عامة ، خففت الديانة البوذية التى انتشرت فى أنحاء هذه البلاد، بالإضافة إلى تغلغل الثقافة الإسلامية من قسوة العبودية وتسلط السادة الإقطاعيين عليهم.

أما عن القارة المكتشفة حديثاً أمريكا، فعند الغزو الأوروبى للمكسيك عام ١٥٢١م، كانت تقوم فى المدينة الرئيسية تينوتستيتلان حضارة الأزتيك التى كان يتمتع شعبها بدرجة كبيرة من الثراء. . كان مجتمع الأزتيك منقسماً إلى ثلاث طبقات، أولهما طبقة السادة الأشراف (تيكوتين) قليلة العدد، ثم الطبقة الوسطى المالكة للأرض (كالبولى) ، والطبقة الدنيا المعدمة ، بجانب الطبقات الثلاث وجد العبيد، من أسرى الحروب، والمدنيون الذين لم يتمكنوا من تسديد ديونهم، وأيضاً الأحرار الذين باعوا أنفسهم أو باعهم أهلهم بسبب الفقر، وكان هؤلاء العبيد يعملون لدى طبقة التيكوتين المكونة من الامبراطور وأسرته، والتجار والأثرياء، الذين كانوا يعيشون حياة مرفهة، ويحصلون على أرقى تعليم وتدريب لأطفالهم.

وفى الخلاصة ، بالرغم من الأديان لم تلغ نظام العبودية ولكنها أوصت بالمعاملة الطيبة للعبيد، فتحسن وضعهم وتم معاملتهم معاملة إنسانية، كما حثت الأديان على عتق الأرقاء إذا أمكن ذلك ، واستمرت العبودية ونظام الجوارى والسرارى فى دول الشرق الأوسط والشرق الأدنى تخدم فى المنازل وتسرى على السيد المالك.

العبودية فى العصور الحديثة :

أطل القرن السادس عشر على عصر جديد سمى بعد ذلك بعصر النهضة، فقد تم اكتشاف قارة جديدة غرب العالم القديم ، وامتازت هذه الحقبة بنهضة علمية وصناعية وأوروبية، وبدأت الاختراعات والأبحاث فى الفيزياء، والكيمياء، والفلك، والوراثة ... إلخ، على أيدى علماء مثل كوبرنيكس ، وجاليليو، ونيوتن، وفاراداى ، وداروين ، ومندل وعلماء آخرون، ثم لحقتها النهضة الفلسفية بعد قرن أو اثنين من الزمان على أيدى ديكارت، وهيجل، ونيتشه، وشبنهور، وماركس، وغيرهم من الفلاسفة، وفى الفن وجد مايكل أنجلو ودافنشى، كما وجد بيتهوفن وشوبان وموزار وغيرهم من العباقرة الموسيقيين. لقد تحول ركب الحضارة من الشرق إلى الغرب ثم استمر فى السير غرباً إلى الولايات المتحدة فى القرن العشرين.

اختلف عصر النهضة كلياً عن العصور الوسطى، ففى نظر بوركهارت جاء هذا العصر حصيلة تبدل جذرى فى المناخ الفكرى للشعب الإيطالى، وتميز عصر النهضة بطابع الطغيان القائم على القوة وفردية الإنسان، ومنه بزغ مذهب الفردية التى تقوم على شهوة المجد والتطلع إلى العظمة.. كما ساد فى هذا العصر الرغبة فى العلم واحترام الشخصية البشرية والبعد عن النصوص المقدسة والأفق المحدود للتفكير والتزمت فى الرأى.

وفى هذا العصر ظهرت البورجوازية الرأسمالية لتزاحم طبقة السادة النبلاء، ثم ترثهم فى القرون التالية.. اتسم البرجوازى بحب المغامرة، وحنكة الإدارة، وهو مفاوض لبق يجيد الحديث والمناقشة والإقناع، له عقلية منهجية، كل شىء عنده يجرى بحساب.. اعتمد ملوك أوروبا على الطبقة البورجوازية الجديدة التى كانت تسيطر على التجارة والصناعة وبالتالى على الثروة مما ساعد على قيام صراع بين طبقة السادة النبلاء الإقطاعيين ، ذوو المجد والنسب القديم، والطبقة البورجوازية الحديثة الثرية.. وتنافست الطبقتان فى الولاء للملك، وتقديم الخدمات له، مما ساعد على

تطوير الملكية المستبدة، خاصة فى فرنسا التى تعتبر نموذجا لهذا الاستبداد، فالسلطة المطلقة التى تمتع بها ملوك فرنسا، اعترف بها قانوناً كهبة من حق إلهى.

كان هدف رحلة كولومبوس البحث عن طريق آخر للوصول إلى الهند غربا، ولكنه اكتشف قارة جديدة فى نهاية القرن الخامس عشر. عجز الأوربيون فى استعباد السكان الأصليين لقارة أمريكا من الهنود، فاستوردوا عبيداً زنوجاً إلى المناطق الأمريكية الحارة، وقد وصلت قوافلهم الأولى إلى السواحل الأمريكية عام ١٥٠١. كان البرتغاليون السباقين إلى الإقامة على الشواطئ الأفريقية، فأنشأوا أسواقاً وموانىء لتموين السفن وللتجارة، ثم جاء بعدهم الهولنديين والأنجليز والفرنسيين.

باكتشاف أمريكا الشمالية والجنوبية فى نهاية القرن الخامس عشر تم إنشاء المستعمرات الأوروبية فى الأمريكتين فى القرون الثلاثة التالية، وقد أدى هذا إلى جلب آلاف من الزنوج من أفريقيا وسواحلها الغربية خاصة للعمل فى مزارع الأرض المكتشفة.. أصبح الرق تجارة واسعة ورائجة يملكها السيد الأبيض الذى اصطاد الزنجى الأسود من أدغال أفريقيا وشحنه كالحيوان عبر المحيطات ليعمل فى مزارع القطن فى الولايات الجنوبية للولايات المتحدة الأمريكية ، وفى مزارع القصب فى دول أمريكا اللاتينية ، فى نفس الوقت وبعد صدام طويل وعنيف، لم يستطع الرجل الأبيض استرقاء الهنود الحمر الذين آثروا العيش فى مستعمرات منعزلة خاصة بهم.

بدأت تجارة العبيد فى المستعمرات الأمريكية بواسطة تجار من البرتغال وأسبانيا، كما دخلت إنجلترا كمنافس فى هذه التجارة فى منتصف القرن السادس عشر والتى انتشرت بعد ذلك بواسطة التجار الأوروبيين خاصة من فرنسا وهولندا والدنمارك.. كان أول عبد زنجى يطأ الأراضى الأمريكية الجديدة فى عام ١٦١٩، أعقبه أعداد قليلة فى البداية، ومع التوسع فى استزراع الأراضى خاصة فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية فى منتصف القرن السابع عشر، زاد عدد الزنوج الذين تم جلبهم من أفريقيا، وتحولت بعض المدن فى السواحل الشرقية لأمريكا مركزاً لحركة وتجارة العبيد.

كونت طائفة الكويكرز فى انجلترا وأمريكا أول معارضة منظمة للرق، ففى عام ١٧١٦ حرموا من عضويتهم كل مشتغل بهذه التجارة، وفى عام ١٧٨٣ كونوا جمعية لإغاثة وتحرير العبيد الزنوج فى جزر الهند الغربية، ولتثبيط تجارة الرقيق على ساحل أفريقيا، وفى عام ١٧٨٣ تكونت لجنة للتعجيل بإلغاء تجارة الرقيق، وفى عام ١٧٨٩ بدأ وليام ولبرفورس حملته فى مجلس العموم لإنهاء التجارة البريطانية فى العبيد، وقد أقنع تجار الرقيق مجلس العموم مرة بعد الأخرى بتأجيل مشروعه، فلم يصدر المجلس القانون إلا عام ١٨٠٧، وهو قانون يحرم على أى سفينة أن تحمل عبيدا من أى ثغر فى الممتلكات البريطانية بعد أول مايو ١٨٠٧، أو لأى مستعمرة بريطانية بعد أول مارس من عام ١٨٠٨.

كانت الدنمارك أول دولة تلغى تجارة العبيد فى عام ١٧٩٢، تلتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى عام ١٨١٤، ثم سنت معظم الدول الأوروبية القوانين، أو دخلت فى معاهدات تحرم نقل العبيد، فأدى انخفاض العرض إلى تحسين أوضاعهم وظروف معيشتهم من ناحية السيد المالك.. حررت فرنسا عبيدها عام ١٨٤٨ ثم لحقتها هولندا فى عام ١٨٦٣، كما تزامن تحرير جمهوريات أمريكا الجنوبية لعبيدها وقت إنشائها، أما البرازيل قد ألغت الرق عام ١٨٨٨، وقد وصل عدد العبيد الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٨٦٥، وهو عام الإلغاء النهائى للعبودية حوالى أربعة مليون عبد.

كان الرق فى أمريكا اللاتينية أقل استمرارا بالنسبة للرق فى الولايات المتحدة الأمريكية وجزر الكاريبى، فقد أعتق عدد كبير من عبيد المستعمرات الأسبانية والبرتغالية. جاء فى كتاب "الغرب والعالم - تاريخ الحضارة" للمؤرخ الأمريكى كافين رايلى: «كانت فى أمريكا اللاتينية عدة وسائل يحرز بها العبيد الحرية.. فقد كانوا يشترونها بالخروج إلى العمل أيام الآحاد، أو أيام العطلات البالغ عددها خمس وثمانون يوماً فى التقويم الكاثوليكى. وكان من حقهم فى كوبا أو المكسيك أن يعلنوا بثمن شرائهم، فيقومون بدفعه على أقساط، وقد أصبح هذا عادة واسعة الانتشار، ولاسيما فى كوبا.. فكان العبد الذى يبلغ ثمنه ٦٠٠ دولار يشترى حريته بسداد ٢٤

قسطاً تبلغ قيمة كل منها ٢٥ دولاراً، ويسمح للعبد بالانتقال من منزل سيده بعد سداد القسط الأول».

وكانت هناك وسائل أخرى لتحرير الرقيق فى أمريكا اللاتينية ، فقد أعتق سيمون بوليفار آلاف الرقيق فى فنزويلا وكولومبيا عندما انخرطوا فى الجيش فى حروب الاستقلال، كما أعتق الكثير من الرقيق الذين انضموا إلى جيوش البرازيل والأرجنتين . . وكانت كوبا تصدر قرارات دورية يتم بموجبها عتق الرقيق الذين يفرون إلى شواطئها ويعتنقون المسيحية تلقائيا. . كما كان من سلطة القاضى أن يحكم بإعتاق العبد الذى وقع عليه عقاب ظالم، وكان من حق الرقيق البرازيلى إذا أنجب عشرة أطفال أن يطالب بحريته شرعا، وبحلول القرن التاسع عشر، أصبحت غالبية الأمريكيين الأفارقة فى معظم البلدان الواقعة جنوبى الولايات المتحدة الأمريكية، لا هم بالسود ولا بالعبيد. . على عكس ذلك كانت المستعمرات البريطانية تفترض بصفة آلية، أن كل أسود أو داكن البشرة من أصل أفريقى هو عبد، وكانت تفرض ضرائب باهظة - تفوق أحياناً قيمة العبد - على عمليات تحرير العبيد.

كانت القوانين فى الولايات الجنوبية للولايات المتحدة الأمريكية تنص على أن جميع الزنوج أو المهجنون الموجودن أو الذين سيوجدون وكل نسلهم وذريتهم، المولودين منهم والذين سيولدون، هم بموجب القانون من العبيد، وسيظلون إلى الأبد عبيداً بشكل كامل. . حتى القلة من العبيد المعتقين كانت ترغم فى كثير من الأحيان على العودة إلى الرق إذا لم يتمكن العبد من سداد دين أو غرامة، وكانت ولاية فرجينيا تلزم العبد المعتق بمغادرة الولاية فى مدى سنة وإلا يتم بيعه مرة ثانية.

كان الإنجاز الهام فى النضال ضد العبودية هو تبنى جامعة الدول (League of Nations) عام ١٩٢٦، لميثاق أو المعاهدة الدولية للعبودية (Interntional Slavery Convention) والتى حرمت تجارة العبيد كما ألغت نهائياً كل أشكال العبودية والرق، كما تم إعادة التأكيد على هذه المعاهدة بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان

(Universal Declaration Of Human Rights) من قبل الأمم المتحدة (United Nations) عام ١٩٤٨، وفى عام ١٩٥١ تكونت لجنة نابعة من الأمم المتحدة، لعمل تقرير عن نظام العبودية، وانتهى تقرير اللجنة إلى الانخفاض الحاد فى ممارسة العبودية ما عدا عدة آثار خفية ما زالت متبقية لنظام العبودية فى أماكن متفرقة من العالم، ومع هذا فقد رأت اللجنة أنه مازال يوجد أشكال من الاستخدام الشبه استعبادى لعدد كبير من الناس فى بعض الدول، وتشمل هذه الأنواع من الاستعباد أو شبه استعباد: عبودية الأرض (Serfdom)، وتسخير العمال (Peonage)، والتعسف فى استعمال السلطة بالنسبة للأطفال، وزواج المرأة بدون رضاها.

كنتيجة لتوصيات لجنة الأمم المتحدة تم عقد مؤتمر دولى فى جنيف بسويسرا عام ١٩٥٦، شارك فيه واحد وخمسون دولة.. تم فى هذا المؤتمر إصدار معاهدة مكملة لمعاهدة ١٩٢٦، لإلغاء العبودية وتجارة العبيد وإلغاء جميع القوانين الخاصة بممارسة كل أنواع العبودية أو الشبيهة لها.. كما أدانت المعاهدة الجديدة كل الأعمال التعسفية المماثلة للاستعباد والتى جاء ذكرها فى تقرير لجنة الأمم المتحدة.

كتب علماء الحملة الفرنسية فى بداية القرن التاسع عشر عن الرق فى مصر فى كتاب "وصف مصر"، أنه كان يوجد نوعاً من الرقيق، السود من وسط أفريقيا وكان يتم جلبهم إلى مصر عن طريق القوافل، والبيض ويأتون من أقاليم أسيا المجاورة للبحر الأسود، وكان العبد فى مصر مكملاً لثروة سيده الذى كان يستطيع أن يبيعه أو يبادل به أو يعتقه، وليس للعبد أن يمتلك شيئاً خاصاً به، فكل ما يمكن أن يحصل عليه يكون من حق سيده.. لم يتمتع العبد فى مصر بأى حق مدنى فكان يعتمد فى كل أموره على إرادة سيده.. وكان العرف فى مصر خصى العبيد الذكور خاصة من كانوا يعملون فى المنازل فى خدمة الحريم، وكانت عملية الخصى تتم بطريقة غير إنسانية ببتر العضو الذكرى للعبد، فكان يموت بعضهم أثناء أو بعد هذه العملية.. كان ما يفرض على العبد من واجبات تتعلق فقط بالخدمة المنزلية أو يقوم بأية أعمال أخرى تتصل بشخص سيده، لكنه كان بعيد عن الزراعة وعن الأعمال الشاقة، ولعل أشق عمل يكلف به العبيد هو أن يعهد إليهم سادتهم بالعناية

بخيولهم، وحسب قول علماء الثورة الفرنسية كان العبيد بصفة عامة يعاملون فى مصر بلطف، وغالباً ينتهى بهم الأمر إلى العتق خلال بضع سنوات أو عند موت سيدهم.

كان العبد الأبيض يعتبر عضواً من أعضاء الأسرة المصرية، وعندما يرضى تاجر عن عبده فإنه يشركه فى تجارته، ويزوجه من ابنته، ويهيىء له حياة طيبة، أما الرقيق الذين كانوا فى خدمة البكوات أو كبار ضباط المماليك فإن حظهم أكثر بريقاً، حيث أن سادتهم أنفسهم قد بدأوا حياتهم عبيداً، فإنهم بدورهم اعتنوا بالعبيد وهيئوا لهم تدريب عسكرى مناسب ليشكلوا بعد ذلك جيش المماليك.. أما الإماء البيضاوات فكن يتمتعن باعتبار خاص، ذلك أنهن عادة ما يصبحن زوجات السادة من البكوات أو المماليك. كانت الأمة تباع بثمن أعلى من العبد الذكر، وإذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين الأمة وأنجبت طفلاً، فإن السيد لا يستطيع بيعها، إذ تصبح الأمة فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها، وعندما تموت الأمة يصبح ابنها شرعياً ويرث شأنه شأن أبناء الزوجة الحرة، وفى حالة إذا ما أراد السيد أن يتخذ من الأمة زوجة شرعية فكان عليه أن يعتقها أولاً.. وكان العبد المعتوق يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى سيد آخر قبوله.

جاء فى كتاب وصف مصر أن على بك الكبير أعتق كثيراً من مماليكه ودفعهم إلى مراتب البكوات، ومع ذلك فقد كانوا عندما يأتون لزيارته، يظلون واقفين فى خنوع، ولا يجلسون أمامه إلا إذا دعاهم لذلك، كما كانوا يحرصون على ألا يجلسوا على نفس الأريكة التى يجلس عليها سيدهم القديم.. كانت عملية العتق تتم فى مصر إما شفاهة من السيد أو تحرير وثيقة بالعتق.. وكان العرف فى مصر أن يرث العبد جزء من ثروة سيده إذا مات دون ذرية ترثه، أما الأمة التى كان من واجبها الاستجابة لجميع رغبات سيدها، تستطيع أن ترفض أى فعل يهين طبيعتها.. عامة كان العبد فى مصر أحسن حالاً وأوفر حظاً من العبيد فى أجزاء أخرى من المعمورة، وذلك لأن طبيعة المصرى لا تميل إلى السيادة والعنف ، فكان المصرى الحر كما جاء فى كتاب وصف مصر: « يحمل بين جوانبه روحاً منكسرة تشى عن نفسها فى كل

حركاته وإيماءاته ، فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم، وعندما تباح له أن يدرج فى مصاف الأثرياء، فإنه يعمل على إشعار البؤساء الذين يأتمرون بأمره بوطأه استعلائه وتحكمه ، وذلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقاها ولا يستحى الفلاح أو الحرفى - مهما كانت مهنته - من أن يستجدى، حيث لا يهمهم كثيراً ما سوف يقال عنهم وعن حالهم، بل أنهم يفعلون كل ما فى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز بقدر الإمكان».

كان الصيد وسباق الخليل من هوايات المماليك المحببة ، وتسليتهم المفضلة، فقد كان يتم تدريبهم منذ الصغر على فنون الحرب وأساليب الصيد، واعتبروا ركوب الخيل والقنص من الرياضات السامية، تهذب الخلق وتقوى القدرة على تحمل الصعاب، وتسرى عنهم فى أوقات السلم التى يتوقف فيها القتال. . وفى أثناء الصيد تخلص المملوك قطز من المنصور على مستغلاً غيبة أكثر الأمراء من مماليك أبيه، وفى أثناء الصيد أيضاً قتل الأمير بيبرس البندقدارى السلطان المظفر قطز بعد أن هزم التتار فى معركة عين جالوت فى القرن الثالث عشر . . حرص المماليك على اقتناء الحيوانات والطيور بغرض الزينة والاستعانة بها فى عملية الصيد، فاهتموا بتربية الخيول، وكلاب وصقور الصيد، وكذلك ترويض الحيوانات المفترسة.

شغف المماليك بسماع الموسيقى والغناء، وأغدقوا عليهم بالعطايا والهدايا، مما جعل لهذه الفنون أهمية كبيرة فى ذلك العصر، فانتشر الاهتمام بالطرب ليعم معظم الشعب المصرى. . بالرغم من إظهار بعض السلاطين المماليك امتعاضهم، واضطهادهم لانتشار هذه الظاهرة ، فإن الناس استمروا على اهتمامهم بالطرب. . استمتع المماليك أيضاً بالرقص ، وجلبوا الراقصات اليهوديات والأرمن وضموهن إلى الحاشية، فاكتملت دائرة الطرب والاستمتاع بمباهج الحياة الذى أصبح جزء من ثقافة الشعب المصرى فى عصر المماليك، لقد ساد المملوك الأجنبى على الحر المصرى، واستمتع المملوك بلذات الحياة ، وإن كان عامة الشعب قد عاش فى مستوى اجتماعى ومادى أقل، إلا أنه قد نال أيضاً جزءاً من هذه المباهج لما لطبيعة المصرى من ميل للبساطة والانشراح، لقد كان للطرب أثر نفسى إيجابى للتنفيس عن معاناة الشعب المصرى، وللتخفيف من حالة البؤس والخضوع التى عاش فيها.